

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) المجلد 19 العدد 01 2023/01/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مقاربة تحليلية أنثروبولوجية لمفهوم الأب في الإسلام

An analytical anthropological approach of the Father concept in Islam

عمار عبد الحق*

جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس - الجزائر

amarpsy.2009@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/02/12

تاريخ الاستلام: 2022/01/10

ملخص:

من خلال بحثنا هذا حاولنا مقارنة مفهوم الأب، وذلك بالرجوع إلى المعطيات المختلفة التي تحدد أبعاده المتعددة، خاصة البعد الاجتماعي و الثقافي-الأنثروبولوجي، والذين أظهرنا بأنه بعد متطور ومتغير بحسب متغيري الزمان والمكان، بمعنى أن لكل ثقافة مقارنة لمفهوم الأب وداخل نفس الثقافة هذا المفهوم سيتغير من زمان لآخر. كما أردنا إظهار أن الإسلام، ومن خلال النص القرآني ألغى عملية الفصل بين مفهوم الأب ومفهوم الوالد، من خلال إلغاءه للأبوة لغير الوالد، وذلك بهدف الحفاظ على النسب وكذلك لأجل جعل الأب/الوالد يلعب دوره كاملا إلى جانب طفله. الكلمات الدالة: الإسلام، الأنثروبولوجيا، الأب، الوالد، الأبوة الرمزية.

Abstract:

Through this research, we have attempted to approach the concept of the Father, referring to the different data that define it in its multiple dimensions, in particular the socio-anthropological and cultural dimensions, which have shown that it is an evolutionary concept and variable according to two time variables and space, in the sense that each culture has an approach to the concept of the Father and in the same culture this concept will change in time. We also wanted to show that Islam, through the Qur'anic text, abolished the process of separation between the father concept and that of the father, through the abolition of paternityfather, in order to preserve the progeny and also to make the father/progenitor play his full role alongside his child.

Keywords: Islam, anthropology, father, progenitor, symbolic fatherhood

* المؤلف المرسل: عمار عبد الحق، الايميل: amarpsy.2009@gmail.com

مقدمة

تعتبر العائلة الوحدة الأولية التي تقوم عليها أغلب المجتمعات، وهذه الوحدة تختلف في تركيبها من مجتمع لآخر، وذلك بحسب القيم والمعطيات الاجتماعية-الثقافية التي تحكم المجتمع؛ ولهذا نجد عدة أنواع من العائلات، ففي المجتمعات الغربية المعاصرة نجد العائلة الثنائية الوالدين بجنسين مختلفين وترتبط بينهما علاقة زواج وكذا العائلة الأحادية الوالد مروراً بالعائلة الثنائية الوالدين من جنس واحد، أما في المجتمع الجزائري خاصة والعربي-الإسلامي عامة فإن نمط العائلة السائد هو العائلة الثنائية الوالدين بجنسين مختلفين وترتبط بينهما علاقة زواج؛ بحيث تحافظ على تركيبها الأولية و/أو التقليدية، كما أننا نسجل بروز ما اصطلح على تسميتها بالعائلة النووية، والتي تتكون من الأب والأم والطفل أو الأطفال.

لقد أولى المجتمع والثقافة أهمية كبيرة للأب داخل العائلة، ويتجلى ذلك من خلال الدور والوظيفة الذين أنيط بهما، انطلاقاً من المكانة التي حُص بها. كما أن الإسلام لم يهمل هذا الأمر بل أكد عليه في عدة مواقع ومواقف، بحيث نجده يؤكد على أن الأب هو مصدر نسب الولد، ويظهر ذلك في الآية الكريمة "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۗ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" (الأحزاب : 5)، نلاحظ هنا بأن القرآن الكريم يوجه المجتمع إلى أن مصطلح الأب له بعد نسبي، بحيث أن الأب يسمح للطفل بالحصول على اسم يدرجه تحت نسبٍ معين و يجعله ينتمي إلى شجرة نسب محددة.

لكن بالعودة إلى سبب نزول هاته الآية الكريمة وتفسيرها، فإننا نجد أنها نزلت في حق زيد بن حارثة، والذي كان النبي محمد ﷺ قد تبناه واتخذه ولداً على عادة العرب آن ذاك، بحيث ألغت النسب بفعل الأبوة الاجتماعية وحصرته في الأبوة البيولوجية (الوالد)، ولا يفوتنا هنا التأكيد على وجود اختلاف كبير بين مصطلح الأب من جهة ومصطلح الوالد من جهة أخرى، فمصطلح الوالد يحيلنا إلى ما هو بيولوجي وما هي صلة فسيولوجية بين فرد أول، هو الأصل أو السلف وفرد ثان هو الفرع أو الخلف. أما مصطلح الأب فيحيلنا إلى كل ما هو اجتماعي-ثقافي وما هو أنثروبولوجي.

أولاً : مفهوم الأب

يمكن تعريف الأب على أنه الشخص الذكر الذي يتسبب في وجود الطفل بعد معاشرته للأم، وهو يتكفل به من الناحية المادية، ويسجله في نسب محدد، من خلال أنه يعطيه اسماً يسمح له بأن ينتمي

إلى عائلة (جماعة). من الصعب تحديد مفهوم الأب فهو متشعب ولديه أبعاد متعددة : البعد البيولوجي، البعد الاجتماعي والبعد الأنثروبولوجي-الثقافي.

1- البعد البيولوجية

إن المعرفة القائلة بوجود مباشرة الأب للأم، لأجل الحمل، هي معرفة قديمة، لكنها كانت موضوع فرضيات متعددة، من قبل الإنسان قديماً، فمن قائل أن الأب يقدم البذرة والأم تقدم التربة الضرورية لها، إلى قائل بأن الأب هو العنصر الأساسي الذي يشكل المادة الموجودة في الأم.

مع التقدم العلوم، أصبح الإنسان يدرك بأن تشكل الطفل، إذا كان نتيجة لقاء حميمي وجنسي بين الأب والأم في الظاهر، فهو في الباطن نتيجة لقاء بين الخوئين المنوي (Spermatozoïde) للأب والبويضة (Ovule) للأم. فالأب إذن من الناحية البيولوجية هو ذلك الفرد الذي يقدم المادة الحية الضرورية لتلقيح بويضة الأم. وظهر بأن الخوئين المنوي للأب يحتوي على نصف المورثات والجينات، كما أن بويضة الأم بدورها تحتوي على نصف المورثات والجينات؛ وتوحدما تتكون بيضة موحدة تمثل نقطة البداية للجنين (الطفل) وتحتوي على مورثات الأب والأم. هذه المعطيات الجينية سوف تسمح لنا بتحديد أب الطفل عند الضرورة. فإذا كانت الأم، عادة، سهل التعرف عليها لكونها هي الحاملة للجنين وواضعته، ففي بعض الأحيان يصعب تحديد الوالد، خاصة إذا لم يعترف هذا الأخير بالولد. لهذا بحث العلماء عن مؤشرات أو تقنيات تسمح بالتعرف على الأب البيولوجي للطفل.

ومن هنا ركز الباحثون في مجال المورثات والجينات في البداية على الخصائص الفيزيائية (مثل لون الشعر والعينين، القامة...) لأجل إيجاد علاقة بين الأب والطفل، وذلك بالاعتماد على قانون Mendel للانتقال الوراثي والمرتکز على وجود جينات مهيمنة وجينات متنحية، كما أن الباحثون اعتمدوا ولمدة طويلة على زمرة الدم في تحديد والد الطفل، فمثلاً إذا كانت الأم من فصيلة "A"، لا يمكنها بأي شكل من الأشكال أن تُنجب طفلاً من فصيلة "AB" إذا كان الأب من فصيلة "A" أو "O". مع التقدم العلمي، أصبح إثبات الأبوة ممكن بشكل قطعي مع تقنية الـ"ADN"، فهذه التقنية تثبت الأبوة أو تنفيها بنسبة تفوق 99,99%، وهي تعتمد على ما أصبح يسمى الآن بالبصمة الجينية (Le Camus, 2004).

نشير كذلك إلى Wallon حيث يقول بأن "النمو النفسي للطفل يقدم تضاد (Opposition) كما هو ملاحظ في كل تطور... عند الطفل تتواجه و تتداخل بالاشتراك عوامل ذات مصدر بيولوجي واجتماعي" (Wallon, 2002) ، ويظهر لنا جليا هنا بأن الأب يلعب دورا مهما في نمو الطفل من الناحية البيولوجية، بحيث أنه سيقدم للطفل نصف المورثات، كما سبق لنا و أن أشرنا إلى ذلك، والتي بتفاعلها مع مورثات الأم سوف تحدد المظهر الخارجي للطفل، هذا المظهر الخارجي الذي سيتفاعل الطفل به مع العالم الخارجي المحيط به.

2- البعد الاجتماعي

الأب في علم الاجتماع هو الشخص الذي يتكفل بالطفل، بمحاجاته المعنوية والمادية. والحاجة الأولية للطفل في المجتمع تتمثل في حاجته إلى الهوية والتي لا يحصل عليها إلا بحصوله على اسم يسمح للآخر بالتعرف عليه، هذا الاسم يعطى له من طرف الأب، "الأب يبقى أولا محطة نقل للنسب الاسمي"² (Badinter, 1980).

يمكننا القول أنه إن كانت الأم تضع الطفل بيولوجيا فإن الأب يضعه اجتماعيا، فعندما يتوجه الأب إلى البلدية لإمضاء شهادة ميلاد ابنه فهو يمضي شهادة ميلاده كأب في نفس الوقت، فالرجل يصبح أبا بعد أن تضع زوجته طفلها بين يديه وتقول لهذا الأخير: "هذا هو أبوك".

من هنا يصبح الأب ضروري ويلعب دورا محوريا في حياة الطفل، مع أننا نجد Mead تركز على أن الأب ضرورة بيولوجية إلا أنها تستدرك مؤكدة بأنه حادث اجتماعي (Neuburger, 2015). إذن الرابطة الأساسية بين الأب والطفل تتمثل في "الاسم"، وما يتبع ذلك من حقوق وواجبات متبادلة فيما بينهما، بمعنى أنه كما أن للأب واجبات تجاه طفله فله حقوق عليه.

هنا يحق لنا أن نتساءل هل الوالد فقط يكون أبا؟ في الكثير من الأحيان لا، فكما أن الوالد قد لا يكون أبا، يمكن لغير الوالد أن يكون أبا، وذلك بأن يكون أبا بالتبني. لأن الأب له دور ووظيفة يجب عليه أن يقوم بهما تجاه الطفل.

² le père demeure d'abord le relais de la filiation nominale

3- البعد الأنثروبولوجي-الثقافي

إن مقارنة مصطلح "الأب" من الناحية الثقافية والأنثروبولوجية أمر صعب للغاية، وذلك يعود إلى كون هذا المصطلح في علاقة وطيدة مع متغيرين أساسيين وهما الزمان والمكان. فالأب في العالم العربي-الإسلامي ليس هو نفسه في العالم الغربي، كما أن الأب في بداية الإنسانية لم يكن على شاكلة الأب المعاصر.

كثيرة هي المجتمعات التي تعتبر الأب معطى ثقافي، فمثلا في بعض الحالات تلعب المرأة دور الأب، كما بين ذلك Radcliffe-Brown، حيث يقول: "في الكثير من المناطق بإفريقيا، توجد عادة وبحسبها تستطيع امرأة أن تتزوج من أخرى حسب طقوس الزواج وبهذا تأخذ دور الأب (Pater) لأطفال والدهم (Genitor) صفته عشيق"³ (SAVARD, 1969). في قبيلة Les Moso، وهي قبيلة في الصين، الأم هي التي تعطي اسمها للطفل والأب البيولوجي يعتبر مجرد عشيق، أما الذي يلعب دور الأب حقيقة فهو الخال. نشير هنا كذلك إلى قبيلة Les Kongo، أين يمثل الخال السلطة الأبوية، بينما يتقاسم أدوار التنشئة مع الأب البيولوجي.

عند الرومان كان "الأب يتمتع بالسلطة المطلقة للاعتراف بالطفل التي تضعه زوجته الشرعية ... الرهان الأساسي هو تبليغ عبادة السلف (ancêtre) ... في حال غياب طفل بيولوجي، كان باستطاعة الأب تبني واحدا للاستجابة لهذه الضرورة" (Houzel et al, 2008)، لم يكن الأب أكيدا ولهذا كانت المرأة إذا وضعت بعد الحمل تترك طفلها على الأرض في وسط الطريق، حتى إذا اعترف به الوالد حملة وتكفل به أما إذا لم يُحمَل فسيموت على قارعة الطريق. "الأب دائما غير أكيد ... في المجتمعات أين الأمانة الزوجية خرافة، الأب لا يكون دائما مُتأكد من أنه أب طفله، وهذه هي مأساة الوالد الشرعي، الذي يخشى من أن يعطي اسم سلالته لدعوي (bâtard)" (Des forts, 2003). حتى في المجتمع العربي الجاهلي كان هناك ما يسمى بنكاح الرهط، والرهط تعني المجموعة من الرجال تفوق الاثنان ولا تتعدى العشرة، وهذا النوع من الزواج، الذي انتشر في الجزيرة العربية وبلاد التبت، يدخل على امرأة واحدة عدة

³ « Dans plusieurs régions d'Afrique, il existe une coutume d'après laquelle une femme peut en épouser une autre selon les rites du mariage et prendre ainsi le rôle du père (PATER) des enfants dont le père (GENITOR) est un amant en titre ».

رجال فيضاجعها كل منهم وإذا حملت ووتضع مولودها فإنها ترسل إليهم جميعًا ولها أن تنسب الولد إلى من ترغب فيه أن يكون أبا له، ولا يمكن لأي منهم الاعتراض على هذا أو الامتناع عن الاعتراف به وقد حرم الإسلام هذا النكاح، وهذا كان يحدث إذا كان المولود ذكرا أما إذا كان أنثى فكانت تخفيها خوفا عليها من الوأد (جواد، علي، 1993).

في بعض الثقافات يتقاسم دور الأب كل من الوالد والجد والعم⁴، بحيث أن الأب يتمثل في مجموعة متعددة "الأوجه". ونحن نجد هذا في الثقافة العربية فكلمة أب اصطلاحا تطلق على الوالد، الجد للأب وإخوة الأب (ابن منظور).

4- تطور مفهوم الأب

إن مفهوم الأب يتطور ويتغير بحسب تطور وتغير المجتمعات، كما أنه متغير من مجتمع إلى آخر. فأب أوائل القرن العشرين، الذي كان متسلطا وخشنا، ليس هو أب القرن الواحد والعشرين والذي يتسم عادة باللين والتفهم، هذا يعود إلى متغيرات عديدة، نذكر منها المتغير الثقافي الاجتماعي خاصة وربما حتى المتغير الاقتصادي المادي. فقديمًا كان الأب هو الوحيد القادر على العمل خارج البيت وكسب المال، من هنا كان هو وحده قادر على الإنفاق على الأسرة وقد أعطت له هذه الميزة سلطة كبيرة داخل الأسرة، حيث أن الأسرة كلها بما فيها الأم كانت في تبعية مطلقة للأب. أما الآن فمع التغيرات الاجتماعية، أصبحت الأم هي الأخرى تعمل وتكسب المال ولها الحق في الخروج والدخول كما شاءت، وأصبحت تمتلك استقلالية مادية عن زوجها (أب أطفالها)، هذا ما جعل ميزان القوة الذي كان لصالح الأب بشكل مطلق يتغير ويصبح في بعض الأحيان لصالح الأم.

ثانيا : الأب ما قبل الإسلام

أولت العرب أهمية كبيرة للأنساب وللرابطة بين الطفل وأبيه، وهذا يتجلى في كونها عنت بالزواج، حيث لم يكن يعترف إلا بزواج الصداق أو نكاح البعولة، والذي يقوم على وجوب تقديم المهر من طرف الخاطب للخطيبة وضرورة قبولها هذا الزواج، مع أن وليها هو من يتكفل بإبرام العقد، وقد أقر الإسلام هذا الزواج لاحقا (جواد، علي، 1993). كما أن العرب اهتمت بالأنساب بحيث كان هناك "علم" قائم

⁴ نجد في لسان العرب أن كلمة الأب تشمل العم أيضا و من باب أولى أن تشمل الجد.

بذاته أطلق عليه علم الأنساب، إلا أن التدوين الأنساب لم يبدأ إلا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (جواد، علي، 1993).

مع ذلك كانت الأبوة تحمل بعدا رمزيا اجتماعيا أكثر منه بيولوجيا، هذا ما ترجمه عملية التنبؤ التي كانت ظاهرة منتشرة في المجتمع العربي بكثرة، الأمر الذي نسجل من خلال الحادثة التي وقعت للنبي صلى الله عليه وسلم نفسه مع بداية البعثة، وتلخص هذه الواقعة في أن قريشا كانت تريد القضاء على شخص النبي صلى الله عليه وسلم لذا سيخلصها من هذا الدين الجديد الذي يهدد مصالحها و يؤرقها في يومياتها، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان في حماية عمه أبا طالب الذي كفله وسنه ثمان سنوات وكان يعتبره ابنا له، فجاءت قريش تفاوض أبا طالب عن ابنه بأن تبادله إياه بولد آخر، تراه أكثر جمالا وشبابا وفتوة، "...واتتمرت قريش بمحمد ومشوا إلى أبي طالب... ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان أهد فتى في قريش وأجمله وطلبوا إليه أن يتخذهم ولدا ويسلمهم محمدا..." (محمد حسين، هيكل، 1975). هذا يعني أن العرب في الجاهلية كانت لديهم إمكانية تبادل أولادهم وذلك يظهر بأنهم لم يكونوا يعطوا أهمية كبيرة للوالد، بل كان اهتمامهم الأكبر بالأب كمعطى اجتماعي، ثقافي ورمزي.

ثالثا : الأب في الإسلام

إن الحديث عن الأب في الإسلام يدفع بنا إلى العودة إلى مفهوم الأب داخل النص المقدس في القرآن الكريم، فنحن نجده يجمع بين أبعاده المختلفة ويحتزله في بعد يظهر أساسيا وهو البعد البيولوجي وذلك لأجل حصر التشريع الإسلامي في مسائل الميراث والزواج والتي تلعب دورا مهما في تماسك النسيج الاجتماعي.

1- الإسلام يحصر الأبوة في صلب الأب :

مع بعثة النبي محمد ومجيء الإسلام تغير مفهوم الأب داخل مجتمع شبه الجزيرة العربية بشكل جذري، فـ "...قبل مجيء الدين الإسلامي الأبوة كانت غالبا اجتماعية أو رمزية. حصر الأبوة في الوالد البيولوجي في العالم العربي يعود إلى الحلقة التي عاشها النبي محمد الذي تزوج زينب، الزوجة السابقة لزيد بن حارثة، ولده بالتبني حسب ما كان معمول به قبل الإسلام..." (Fsian, 2006).

فنجد في القرآن الكريم قول الله تعالى : " مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ

الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا⁵.

ما جعل أدياءكم أبناءكم : الدّعي هو ابن الغير (الأخر)، الذي يجعل منه الفرد ابنا له، فينسبه لنفسه ويتبناه، وقد كانت هذا من العادات سائدة في الجاهلية مكان لها أثر على النظام العام في وعلى العلاقات النَّسَبِيَّة، هذا التبني جعل للولد المتبني حقاً على أبيه المدّعي، تماماً كما هي حقوق الولد الذي هو من صلبه، في عملية التوارث، وحمل المسؤولية الخاصة بالعائلة وربما حتى شؤون القبيلة.

وقد نقلت كتب السيرة النبوية الشريفة في أجواء نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ كان قد تبنى زيد بن حارثة، قبل الإسلام، وكان سبب ذلك أن رسول الله ﷺ لما تزوج بخديجة بنت خويلد خرج إلى سوق عكاظ في تجارة، ورأى زيدا يباع فوجده غلاماً كَيْساً حصبياً، فاشتراه، فلما نُبِيء (بعث) رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام فأسلم، وكان بذلك يدعى زيدا مولى محمد ﷺ (السيرة النبوية لابن هشام).

فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة في طلبه، فأتى النبي ﷺ وأخبره : إن ابني وقع عليه السبي وبلغني أنه صار إليك، وجئتك لأسترجعه منك فيما أن تفاديه أو تبعه لي لكن النبي قال له : هو حرٌّ فليذهب حيث شاء، فطلب حارثة من زيد أن يلحق به وينسبه لكنه أبي وقال : لست أفارق رسول الله، فأصبح يدعى زيد بن محمد ﷺ. لكن الإسلام لم يقر هذا العرف بل رفضه رفضاً قاطعاً، فوجدته يقول: "ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ"، بمعنى أن ذلك مجرد قول لا يغير في الواقع شيئاً، فيما تدّعون من الأبوة لهؤلاء الأولاد، إنها مجرد كلمة لا تعبّر عن الواقع الأصلي ولا تحقق أية نتيجة على مستوى التشريع، لأن الله هو الأساس في المسألة التشريعية. "اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ" وأقرب للعدل، حتى تصلوا إلى تمثيل التوازن بين معنى الكلمة وواقع الأشياء، "فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ"، أي إذا جهلتم آباءهم ولم تعرفوهم لكونهم كانوا من اللقطاء أو من غيرهم، فهم يندرجون تحت مفهوم الأخوة الدينية، بحيث يصبح الدين عنوان العلاقة في مواقع الجهل بالنسب. جهل المجتمع بالوالد لا بد من أن يدفع بأبناء المجتمع إلى اعتبار الولد في هذه الحالة عنصراً كاملاً داخل هذا المجتمع امتثالاً للنص القرآني الذي يرفعهم إلى صف الأخوة، بحيث لا يعيش المجتمع العقدة تجاههم، ويسمح لهم بالاندماج في الحركة الاجتماعية

⁵ القرآن الكريم، سورة الأحزاب الآية 4-5

ويسهل على الأفراد إقامة علاقات معهم، فهم مع غياب الوالد يحافظون على إنسانيتهم، وهنا نجد بأن رابطة الإسلام تكاد تلغي رابطة النسب، بمعنى أن الجهل بأب الولد لا يخول للمجتمع بأن يمنح له نسبا إلا نسب الدين.

ثم يواصل القرآن الكريم في نفي الأبوة الغير الصليبية (البيولوجية) فيقول: "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"⁶، هذه الآية هي الأخرى تؤكد على أن الإسلام يلغي البنوة بالتبني بشكل قاطع وبذلك تلغى كل أبوة ناتجة عن التبني، فالولد يعود إلى والده البيولوجي لا غير، هو الذي يسجله في سلسلته النسبية، فالعلاقة الطبيعية بين الأب وطفله يجب أن تكون علاقة دم (علاقة بيولوجية) قبل كل شيء، ومن هنا نجد بأن الإسلام أعاد للوالد مكانه داخل المجتمع بأن جعله هو الأب لطفله.

كما أننا نلاحظ من خلال قراءتنا لكثير من الآيات الكريمة التي يوصي الله عز وجل فيها الإنسان تجاه سلفه استخدام مصطلح الوالد بدل الأب، "...واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا..."، "وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا..."، "ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك..."، "ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها..."، مصطلح الوالدين هنا يشمل الوالد و الوالدة، ونرى بأن الله سبحانه وتعالى قد رفع من درجتهما في القرآن الكريم بشكل يكاد يكون متساو إذ ذكرهما مع بعضهما في لفظ الوالدين. ونركز هنا على أن القرآن الكريم، ذكر الوالد (داخل مصطلح الوالدين) مباشرة بعد ذكر ركن من أهم الأركان في الإسلام، والذي يقوم عليه هذا الدين، وهو التوحيد.

2- الإسلام لا يلغي الأبوة الرمزية:

إن النص الإلهي يثير فكرة رمزية الأبوة في بعض الآيات، ومنها الآية التالية: "النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۗ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا"⁷. في هذه الآية الكريمة

⁶ القرآن الكريم، سورة الأحزاب الآية 40

⁷ القرآن الكريم، سورة الأحزاب الآية 6

نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع درجة أزواج النبي محمد ﷺ إلى درجة الأم لجميع المؤمنين وبطبيعة الحال هنا نحن أمام الأم في بعدها الرمزي، ومن الطبيعي أن ما يقابل الأم هو الأب وبذلك يكون النبي ﷺ أب للمؤمنين وهذا ما يعبر عنه مفهوم الولاية، والتي يمكن فهمها على أنها الأبوة الرمزية، هذه الأبوة الرمزية ستعمل على منع زنى المحارم بحيث أن الأبوة الرمزية هي التي رفعت نساء النبي إلى صف الأم والتي كما نعلم ممنوع التفكير في الزواج منها. هذا ما ذهب إليه جل المفسرين ومنهم السعدي الذي أكد على أن ولاية النبي هذه تجعله يبذل للمؤمنين النصيح، ويكون رؤوف بهم يشفق عليهم ويشملهم بالرحمة وعليهم بذلك أن يقابلوه بأن يجعلوه أحب إلى أنفسهم من أنفسهم، بأن يقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وهو صلى الله عليه وسلم، أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يربيهما كما يربي الوالد أولاده. وأن نساؤه أمهات للمؤمنين، أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية.

كما أن القرآن الكريم يحتوي على آيات تشير إلى أن للأبوة منحنى اجتماعي-ثقافي بالإضافة إلى المنحنى الرمزي، ففي سورة يوسف (ع) نجد قول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَوَعَلَمْنَاكَ مِنْ تَوَلِيهِ الْأَحَادِيثِ وَوَيْتُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"⁸. في هذه الآية الكريمة نجد بأن مصطلح الأب (أبويك) يشمل الجد وهو في كثير من الأحيان ملموس، إذ يدركه الفرد وأب الجد وغالبا ما لا يدركه الفرد، ما نريد قوله هو أن مصطلح الأب لديه هنا بعد اجتماعي يتمثل في الجد وبعد رمزي يتمثل في أب الجد. هنا نجد ذكر إبراهيم عليه السلام والذي هو أب الأنبياء كما نعلم، والذي يتماها معه كل من ينتمي إلى دين الإسلام، "...مَلَأَ أَيْكُمُ إِبْرَاهِيمَ ۖ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ..."⁹، كما أن التسمية هنا رفعت إبراهيم إلى مقام الأبوة.

⁸ القرآن الكريم، سورة يوسف الآية 6

⁹ القرآن الكريم سورة الحج الآية 78

رابعاً : مقارنة تحليلية للأب في الإسلام

1- انبثاق الأب البيولوجي :

نما تقدم ذكره يمكن القول بأن الإسلام قام بتسمية الوالد على أنه الأب، وهو بذلك أعلن "ميلاد مفهوم الأب البيولوجي" بحسب Fsian (2006)، الذي يقوم بمقارنة بين ما جاء به الإسلام وما جاء في التحليل النفسي، من خلال الربط بين التسمية والحقيقة البيولوجية، فهو يجد بأن مأساة أوديب بدأت انطلاقاً من تسمية Jocaste على أنها والدته و Laïos والده. "...لكن هناك اختلاف أساسي بين ما يقوله الدين الإسلامي وما تعلمنا التحليل النفسي. بالنسبة لـ Freud فإن قتل الأب هو الذي سمح بميلاد الحضارة الإنسانية. إن الإسلام يمثل لحظة تاريخية لميلاد مفهوم الأب البيولوجي. نستطيع القول بأن مسألة الأبوة مهمة جداً بحيث تسجل العبور من مرحلة قبل الإسلام إلى مرحلة الإسلام. إنه منعرج تاريخي" (Fsian, 2006).

من هنا يمكننا القول بأن الإسلام أعطى للأب مكانه الصحيح واللائق به بهدف الوصول إلى تأسيس الحضارة الإنسانية. فالأب هو الوالد لا غير، والأب لا يمكن أن يكون الرب بأي حال من الأحوال، "...في الإسلام الأب ليس الرب...". يؤكد Benslama (2008)، وهذا ما نجده مذكوراً بشكل واضح في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ¹⁰﴾. فبنفي العلاقة بين الرب والولادة ننفي كل أبوة للرب ومن هنا تنتفي كل علاقة بين الرب والأب. إذن الأب ليس إلا إنساناً لديه قوة ولديه ضعف، قادر على أن يصيب وقادر على أن يخطئ، ولهذا أمر الإسلام بالإحسان إليه حين ضعفه. الأب إذن هو إنسان وهو يملك بذلك أحاسيس ومشاعر وقادر على التفاعل مع الطفل.

وبإرجاع الأب إلى مكانه الصحيح والمتمثل في أنه الوالد، أسس الإسلام إلى ميلاد الحضارة الإنسانية، أو بالأحرى هو يهدف إلى التأسيس إلى حضارة إنسانية سليمة ومبنية على علاقات إنسانية واضحة المعالم والأبعاد.

¹⁰ القرآن الكريم، سورة الإخلاص.

2- ميلاد الطفل مرادف لميلاد الأب :

لقد أوصى النبي ﷺ بالطفل خيرا وحث الوالد على أن يدخل مباشرة على خط تنشئته، وذلك مباشرة بعد ميلاده، فهو فيه الفرد المتكامل، فجده يوجه الأب إلى أن يُؤذن في أذن الطفل اليمنى، لما رواه الحاكم عن أبي رافع قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة" رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح. أما الإقامة في أذنه اليسرى فقد جاء فيها أن الحسن بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى رفعت عنه أم الصبيان"، رواه البيهقي في الشعب وأبو يعلى في مسنده وكذلك عن أبي سعيد عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسن بن علي وأقام في أذنه اليسرى.

نركز هنا على أن النبي محمد ﷺ يوجه الأب بأن يدخل في علاقة مع طفله الحديث الولادة مباشرة (عمار، عبدالحق، 2017)، فالكلمة ستشكل جسرا بيه و بين الطفل، وهذا ما يذهب إليه This (1980) حيث يؤكد على أن أول موضوع يتفاعل معه الطفل يتمثل في الصوت، وأن صوت الأب مرتبط باسمه، ليرد قائلًا : "الصوت والتسمية مرتبطان بشكل وثيق عند الميلاد" (This, 1980 p.222)، وهو يؤكد على ميلاد الطفل ينقله من وضعية داخل الرحم إلى وضعية خارجه فقط، وعلى الوالد أن يحضر إلى جانب الأم ليعطيها الإدراك بأن "صناعة" كانت بالاشتراك فيما بينهما، وصوت الأب من خلال الأذان يعطي الطفل الإدراك بوجود الأب في الفضاء العائلي وبفعل الصدى يدرك هذا الأخير نفسه أبا، وبكلمة أخرى فإن ميلاد الأب يكون مع ميلاد الطفل كما سبقت الإشارة إليه، ضف إلى ذلك بأن كلامه يجعله حاضرا داخل كيان طفله (Plazzolo, 2003).

الخاتمة

يمكن اعتبار الأب عنصرا أساسيا تقوم علي العائلة ومن ورائها المجتمع ولهذا أولاه الإسلام أهمية كبيرة من حيث لا ينفصل عن شخص الوالد والذي يمثل، إلى جانب الأم، سببا مباشرا في وجود الطفل، هذا الأخير في الواقع يمضي ميلاد الأب، الإسلام لا يقبل الفصل بين الأب والوالد، وهذا ما توصلنا إليه من خلال قراءتنا وتحليلنا لبعض الآيات الكريمة.

كما أننا سجلنا من خلال تطرقنا لأبعاد مفهوم الأب، التي لخصناها في ثلاثة أبعاد : البعد البيولوجي، البعد الاجتماعي والبعد الثقافي-الاجتماعي، بأن هذا المفهوم متغير متطور بحسب تغير

المعطيات الثقافية-الاجتماعية، التي تخضع لتغيري الزمان والمكان. يبقى من المهم التأكيد على ضرورة توجيه هذه الدراسات إلى مقارنة هذه التغيرات وفهمها وتحديد آلياتها.

قائمة المراجع:

- 1- القرآن الكريم.
- 2- تفسير السعدي <https://surahquran.com/tafsir-assadi/418.htm>, consulté le 08/01/2022 à 23:00
- 3- جواد، علي (1993)، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، بغداد- العراق.
- 4- عمار، عبد الحق (2017)، العلاقات التفاعلية أب-طفل في المجتمع الجزائري : دراسة مقارنة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة وهران الجزائر.
- 5- محمد حسين، هيكل (1975)، حياة محمد، ط13 دار المعارف - مصر.

Bibliographie :

- 6- Badinter, E. (1980). L'amour en plus : histoire de l'amour maternel (XVII-XX siècle), éd. Flammarion.
- 7- Benslama, F. (2008). la psychanalyse à l'épreuve de l'islam, www.quatrieme-groupe.org/pdf/La_psychanalyse_a_l-epreuve_del-islam_Benslama.pdf, consulté le 21/08/2011 à 15h00, (conférence donnée à Lyon).
- 8- Des forts, J. (2003). Violences et corps des femmes du tiers-monde : le droit de vivre pour celles qui donnent la vie, éd. ANEP.
- 9- Fsihan, H. (2006). Identité féminine-Identité masculine : A propos des relations hommes/femmes en Algérie, thèse de doctorat d'Etat en psychologie clinique, université d'Oran.
- 10- Houzel, D. et al. (2008). les enjeux de la parentalité, éd. Erès, Toulouse.
- 11- Le Camus, J. (2004). Le vrai rôle du père, éd. Odile Jacob, Paris.
- 12- Neuburger, R. (2015). Qu'est-ce qu'un père ?. Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux, 54, 73-80. Plazzolo J. (2003). l'Institution Psychiatrique, éd. Elle bore, Paris.
- 13- Plazzolo, J. (2003). l'Institution Psychiatrique, éd. Elle bore, Paris.
- 14- SAVARD, R. (1969), <http://bibliotheque.uqac.ca/> consulté le 11/04/2011 à 10 : 00
- 15- This B. (1980). Le père : acte de naissance, seuil, Paris.
- 16- Wallon, H. (2002). l'évolution psychologique de l'enfant. éd. Armand Colin, Paris.